هيفاء البشير: الإرادة والالتزام والإنجاز

عبد اللَّه الخطيب [1]

حديثي عن السيّدة هيفاء البشير هو حديثٌ عن واقع مشاهدة امتدت ما يقرب من نصف قرن، فهذه شهادة رفيق درب للسيدة التي هي واحدة من نوعها، بإنجازها وعملها الذي لم يتوقف منذ نعومة أظفارها، وهي تعتبر من جيل الرواد الذين كان العطاء ديدنهم في مجال العطاء والخير.

هذا الجيل الذي للأسف الشديد كما يبدو، لن يتكرر، هؤلاء الذين تركوا بصمات واضحة على ثقافة الخير والتطوع، وتركوا منارات شاهقة تتحدث عن عطائهم وإنجازاتهم التي تمثلت في تشييد المستشفيات والجامعات والكليات والمدارس وبيوت الضيافة ومراكز الرعاية، والذين أوقفوا من حرِّ مالهم على أعمال الخير التي من الصعب حصرها.

هذا الجيل الذي مثَّلَه الرواد، الذين وضعوا حجر الأساس للطريق الذي اختطته السيدة المُكرَّمة في هذا اليوم، والتي هي بألفٍ مما يعدون، بعضهم قضى نحبه، وبعضهم ينتظر، وما بدلوا تبديلًا، جيل الحاجّة عندليب العمد، معزوز المصري، وعصام عبد الهادي، وهند الحسيني أم السكك، ومدام السكك، وعبد الخالق يغمور، ومحمد علي بدير، وعبد الرحمن خليفة، ومصباح الزميلي، وظافر المصري، وضيف الله الحمود، ووهبة تماري، وقسطنطين قّرش، والدكتور أحمد أبو قورة، وإسعاف شقير، ونصرت البيطار، ومحسن

(1) مشرّع وباحث ومؤلف في منظمات المجتمع المدني، مدير عام المؤسسة العربية للدراسات والأبحاث والإنتاج الإعلامي.

الحباشنة، وصبيح المصري، ومحمد الطاهر، والقائمة طويلة لا تنتهي من هؤلاء الكبار الذين نفتقدهم وندعو بطول العمر لمن هو بيننا اليوم، والذين لم نعطهم حقَّهم في التكريم.

وما مركز الأمل للسرطان الذي أصبح يطلق عليه اسم مركز الحسين للسرطان، كما هي حال المستشفى الإسلامي في عمان ومستشفى المقاصد في القدس، ومستشفى الهلال في عمان، والمستشفى الأهلي في نابلس ومستشفى الهلال في الخليل، وجامعة النجاح وجامعة بيرزيت وجامعة الخليل ورابطة الجامعيين، والكلية الإسلامية، والمدرسة الأرثوذكسية.. إلا نماذج لعمل هؤلاء الكبار.

وإذا ما جاز لي أن أُحدّد معالم الشخصية التي نكرِّمها في حياتها، والشكر موصول في هذه المبادرة لمؤسسة عبد الحميد شومان، والتي يحلو لي أن أصفها بألفٍ مما يعدون، فهي ابتداءً:

واحدة من نوعها one of a typo، بمعنى أنه قد لا نجد من يشبها عند تقييم عملها، ومن تعايش معها في عملها يدرك أنها تعمل بطاقة فيلق، فهي دومًا توصف بأنّها تحمل عشرات البطيخات في يدها، وهي المدرسة التي تفوقت على نفسها في سن مبكرة.

وهي الزوجة وربة البيت الأم التي أعطت كل الحب والاهتمام لكلٍّ من حولها، وهي السيدة التي اختار القدر أن يمتحنها في استشهاد زوجها ورفيق دربها وهي في بداية حياتها، وجاء في الحديث أنَّ الله يمتحن محبيه.

وفي الوقت الذي كان من المتوقع أن تنهار وتنتهي حياتها كونها أرملة، فإنها خرجت من المصيبة أقوى، وواجهت حياتها بهمَّة آلافٍ مما يعدّون، وقدمت للوطن ستة رجال أشهد بأنهم من خيرة الخيرة خلقًا وعلمًا وإنجازًا، وللأردن أن يعتز بكلٍّ منهم: الدكتور مازن، والدكتور عبدالرحمن، والدكتور بلال، والدكتور عوني، والدكتور صلاح، والمهندس عامر.

وامتحنها الله بفقدان الدكتور مازن الذي قال فيها: «إنها أُمُّهُ التي آمن بدورها في مجتمعها الصغير ورفضت أن تعيش على الهامش، قبلت الاختلاف واحتوتْه، تعاملت مع الصعاب بروح رياضية، فما زادتها الكبوات إلا عزمًا وتصميمًا وحكمة، كان كلُّ يوم يشكِّل لها تحديًا من نوع جديد، رفضت أن يأتي صباحٌ بغير مشروعٍ جديد أو برنامج عمل زاخرٍ لذلك اليوم، سيدة لم تكن لتتوانى عن سدِّ الثغرات».

والشخصية التي نكرمها اليوم، نذرت نفسها للأعمال التي ليس من السهل على البعض أن يعمل أو يفكر في التطوع من أجل إنجازها، وقد كانت السبّاقة إلى الانغماس فيها.

وجديرٌ بالإشارة هنا إلى أنَّها عندما أعطت وصبّت اهتمامها على التمريض، الذي كاد يمثِّل في النصف الأخير من القرن السابق التحدي الحقيقي لتوفير الكوادر التمريضية المؤهّلة علميًّا وعمليًّا، فإنها وهي الأُمُّ التي أمامها مسؤولية رعاية ستة أطفال، قد التحقت بالجامعة الأردنية- كلية التمريض وحصلت على درجة البكالوريس لتكون نموذجًا يحتذى Role Model في تجاوز ثقافة العيب بالنسبة لعمل النساء في مجال التمريض، ولم يكن ذلك عملًا بسيطًا في حدِّ ذاته، وإنما فتح الباب مشرعًا أمام الفتيات للالتحاق بهذه المهنة الإنسانية. وترجمت ذلك بتأسيس جمعية الأَسرّة البيضاء التي مثَّلت نقلةً أردنية في مجال التمريض ليُكمل مسيرة الطب في الأردن، وامتدَّ عملها من خلال جمعية الأَسرّة البيضاء التي استهدفت مساعدة المستشفيات الحكومية من بعد إنساني، ودعم مهنة التمريض بكل الوسائل، والدعاية بين خريجات المدارس الثانوية، وأكملت عملها بإقامة دار الضيافة للمسنين.

وامتدّ نشاط سيدتنا المكرمّة التي هي بألفٍ مما يعدّون لتأسيس الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي، لتقديم الخدمات والتعامل مع المرضى النفسيين ليعود الفرد منهم قادرًا على رعاية نفسه وأسرته والاندماج في المجتمع.

ولم تتوقف عند هذا الحدِّ، فاستكمالًا لرسالتها تم إقامة منتدى الرواد الكبار الذي استهدف استقطاب السادة كبار السنِّ والمتقاعدين والرواد؛ ليقضوا نهارهم بأنشطة ممتعة مع برامج مسلية وأخرى ثقافية ورحلات، وتناول وجبات غذائية مناسبة ليعودوا في آخر النهار إلى بيوتهم.

وفي أحاديثنا المتصلة في الأمور العامة، كنت أحرص على الالتقاء بالسيدة هيفاء البشير، وكنت أستمع إلى طموحاتها التي لا تتوقف وكنت أشفق عليها، فهي لم تعش عمرها مثل باقي النساء، وأدعو الله لها أن يطيل بعمرها، وأن يمدّها بموفور الصحة والعافية دائمًا، فما قامت به هو إنجازٌ بخمسة أضعاف عمرها.

أم مازن ظاهرة في تاريخ الأردن الحديث؛ فهي المربِّية والمعلمة والأم والأديبة والشاعرة والفنانة والرائدة والقائدة والملهمة، وهي كل ذلك في شخص.

هاجسها كان الإنجاز المتقن الذي كان دافعًا لأن لا تتوقف وألا تتقاعد، طالما أنَّ الله وهبها هذه القدرة وهذا التميُّز على الخلق والإبداع، واذا ما كانت سيدتنا، التي لم تهمل من حولها، فإن مَن حولها بالمقابل احتضنوها بكلِّ قوة من خلال العناية والرعاية والحب لتكون على ما هي عليه الآن. رحم الله الدكتور مازن الذي طالما حدَّثنا عن الأم التي كان يعتبرها مفخرة في هذه الدنيا!

أم مازن، ليس بمقدوري أن أعطيكِ حقَّك، فأنت أكبر وأجمل من كل الكلمات!